المحاضرة 04:

النقد البنيوي التكويني

ارتبط ظهور البنيوية التكوينية تاريخيا بالنصف الأخير من القرن العشرين؛ حيث عمل لوسيان غولدمان (LucienGoldman) على إنشاء وتطوير اتجاه نقدي جديد من منطلق أن المنهج البنيوي أغفل جانبا مهما في طبيعة العمل الأدبي، حيث اقتصرت دراسته على الجانب اللغوي البنائي فقط. ومن هنا جاءت البنيوية التكوينية لمعالجة تلك الفجوة، مُركّزة على العمل الأدبي منذ بداية إنتاجه ومرورًا بمراحله التكوينية وصولًا إلى اكتماله.

- **المفهوم والمصطلح:**

اتخذ مصطلح البنيوية التكوينية عدة مفاهيم لغوية وذلك نتيجة الترجمة "العلمية الاصطلاحية للأصل الفرنسي: le structuralisme génétique. فإذا كانت كلمة structuralisme مشتقة كلمة structure أي من البنية، فإن كلمة génétique بقيت محل خلاف تتوزّعها الترجمات المختلفة وتنتقل سماعا، و تواترا من البعض إلى البعض الآخر، فتارة يقال إنّ معناها التوليدية، و تارة أخرى التكوينية".

يعكس مصطلح البنيوية التكوينية فكرة دمج البنية مع تطور النص الأدبي على مدار مراحل إنتاجه. استعار "غولدمان" هذا المصطلح من العالم النفساني والبنيوي الفرنسي جان بياجيه، الذي كان قد قدّم العديد من الأفكار حول تطور الفكر البشري والنماء المعرفي. لكن غولدمان، في استخدامه للمصطلح، ربطه بدراسة الأعمال الأدبية وركز على كيفية تطور النص الأدبي منذ بداياته الأولى وصولًا إلى اكتماله في صورته النهائية.

فتنظر البنيوية التكوينية للعمل الأدبي من زاوية علاقته بالواقع الاجتماعي والاقتصادي والديني والتاريخي والفكري للمجتمع، وعليه فالعمل الأدبي ما هو إلا بنية لغوية مرتبطة بواقعها الذي عمل على ولادتها، وبالتالي فهي تحلّل العمل الأدبي باعتباره بنية غير مكتفية بذاتها بحاجة إلى مَنْ يفسرها فهي إذن بنية متفتحة على الخارج الإحالي. إنّها تهدف إلى عقد صلة بين الأدب والمجتمع.

- **المنطلقات الفكرية والمرجعيات:**

يمكن القول إن البنيوية التكوينية قد "نشأت استجابة لسعي بعض المفكرين والنقاد الماركسيين للتوفيق بين طروحات البنيوية في صيغتها الشكلانية، وأسس الفكر الماركسي أو الجدلي في تركيزه على التفسير المادي الواقعي للفكر والثقافة عموما".

- تعد النظرية الماركسية ومنهجها الجدلي إحدى أهم مرتكزات البنيوية التكوينية، ويقر غولدمان بالفضل للمقولات الماركسية حيث كانت منطلقا لجل المفاهيم والإجراءات التي طرحتها بنيويته التكوينية.
- تعد المفاهيم والأفكار التي طرحها جورج لوكاتش الناقد الماركسي - وأستاذ لوسيان غولدمان –مرجعية مركزية للبنيوية التكوينية.

- **مقولات وأسس ومرتكزات البنيوية التكوينية:**

قدم غولدمان مجموعة من الأدوات التي يمكن اعتبارها تقنيات تفضي إلى تفكيك العلاقة بين البنى الذهنية وربطها بالطبقات الاجتماعية.

- **الفهم:**

ويعتبر الخطوة الأولى في استقراء كنه العمل الأدبي، إذ تقتضي مرحلة الفهم البحث في بنية النص الداخلية ومكوّناتها الجمالية والفكرية، دون الاستعانة بوسائط خارجيّة"، فالفهم عملية تحليلية وصفية تفكيكية قائمة على الاستقراء تهدف إلى دراسة النص بمعزل عن جميع المؤثرات الخارجية عنه.

- **التفسير:**

يعرف غولدمان التفسير بأنه " إدراج بنية دلالية في بنية أخرى أوسع منها تكون فيها الأولى جزءا من مقولاتها" فإذا كان الفهم يختص بداخل النص ، فإن التفسير يتجه إلى الخارج ليربط النص الأصغر (العمل الأدبي) بالنص الأكبر (المجتمع)، وبمعنى أدق إذا كان الفهم عملا متصلا بالنص فإن التفسير هو وضع ذلك الأخير في علاقة مع واقع خارج عنه.

- **الوعي القائم والوعي الممكن:**

الوعي القائم la conscience réelle : (الوعي الفعلي ، الوعي الواقع) ، وهو الوعي الناتج بطبيعته عن الموروث حضاريا ثقافيا وتاريخيا ، حيث يعيد الحاضر صياغته وفهمه من منطلق رسوخ جمعي ، فالوعي الجمعي يرتبط بالجماعة واقعا وحاضرا، ليكون بذلك الوعي الآني والحالي.

الوعي الممكن la conscience possible : يتجاوز الوعي الممكن سكونية الوعي القائم؛ أي أنه مكان لإبراز القوى الكامنة وصوت لكل مقموع ومنسحق في عجلة الطبقية الاجتماعية.

- **رؤية العالم La vision du monde**

يعرفها غولدمان بقوله أنها: "هذه المجموعة من التطلعات والإحساسات والأفكار التي توحّد أعضاء مجموعة اجتماعية، وفي الغالب أعضاء طبقة اجتماعية، وتجعلهم في تعارض مع المجموعات الأخرى، إنّها بلا شكّ خطاطة تعميمية للمؤرّخ، ولكنها تعميمية لتيار حقيقي لدى أعضاء مجموعة يحققون جميعا هذا الوعي بطريقة واعية ومنسجمة"، حيث يرجع غولدمان

رؤية العالم للجماعة وليس للفرد، على اعتبار أنها "رؤية شمولية تتسع رقعتها لتفصح عن تطلعات وأحساسيس جماعية لا فردية"؛ لأن البنية الفكرية للأدب في انسجام تام مع بنيتها الجماعية، إلّا أنّ ما يقوم به الفرد المبدع هو رفع البنية الفكرية إلى مستوى الإبداع والخيال. فدوره يظل حاضرا أثناء عملية الإبداع، غير أنّ تعبيره قد يحقق رؤية العالم بطريقة لا شعورية لأنها مترسخة في فكره.

- **البنية الدلالية la structure significative :**

وهو المفهوم الأول في كل تحليل بنيوي تكويني، وتعد مقولة البنية الدلالية مقولة أساسية تفضي بالدارس إلى الإمساك برؤية العالم ، ذلك أن هذه البنية تنطلق من التصور الجمعي لمفهوم الرؤية ، البنية الدلالية هي تلك المقولة التي تخترق كيان النص باعتبارها رؤية يصوغها النص بشكل جدلي وهي البنية التي يصادفها الباحث أولا ، فتمنحه بطابعها الشمولي فهما أعمق للخلفية الإيديولوجية، والفكرية للمجتمع أو الفئة الاجتماعية المعبر عنها؛ أي أن" البنية الدالة هي التي تسعفنا في إضاءة النص الأدبي وفهمه، كما تساعدنا فلسفيا وذهنيا على تحديد رؤية المبدع للعالم ضمن تصور جماعي ومقولاتي".